

تحولات الفعل الشعبي

بعد هبة الكرامة 2021 ومعركة القدس

أمير مخول

تشكّل هبة الكرامة (أيار 2021) ومعركة القدس معاً حدثاً فلسطينياً بالامكان اعتباره مفصلياً متداخلاً أثر على الوعي والخطاب ووفّر نموذجاً متطوراً للعمل الشعبي وبرؤية مستقبلية، فيه الكثير من عوامل القوة وفيه أيضاً مواطن ضعف متعلّقة ببنية الفعل القادر على المراكمة مقابل الطاقات الجبارة والمبدعة والأثر الذين ظهروا في الفعل الشعبي مع التأكيد أن المراكمة ليست من مسؤولية من يقومون بالفعل الشعبي وإنما بالحركة السياسية الحزبية أو الفصائلية وبمؤسسات الشعب الفلسطيني القيادية أو صاحبة الأثر.

السمة المميزة الأبرز بتقديري للفعل الشعبي هي أنه خلق حالة نادرة ولادة للأمل وفيها اجتمع شعب فلسطين في فعلٍ جماعي متعدّد الأمكنة وانتصر. الفعل الشعبي في الحي المقدسي الشيخ جراح وفي فلسطين 48 شكّل انتصاراً معنوياً وسياسياً وإعلامياً، لو قارنًا هبة الكرامة مع هبة القدس والأقصى (تشرين أول 2000) والتي تزامنت مع بداية الانتفاضة الثانية، سيوفّر ذلك إطلالة على الخطاب الفلسطيني الشعبي المشارك في الفعل المذكور وهو ما يمكن اختصاره بالتحول من وعي الهوية المشتركة الى وعي القضية الواحدة.

كما أن الفعل الشعبي ممثلاً في هذا السياق بهبة الكرامة، قد أتى بجديد وتجديد للنضال الوطني التحرري الفلسطيني، فهناك معادلة جوهرية أخرى في النظر الى الهبة بمجملها ومفادها أنّ حدثاً موضعياً في فلسطين ومنبثق مباشرة من قضيتها، قد يتحوّل الى

حدث استراتيجي ومفصلي، فلولا صمود أهالي حي الشيخ جراح وكيفية ادارتهم لهذا الصمود، لكان من المستبعد تسارع اتساع الفعل الشعبي في كل فلسطين والعالم. وهذا مفاده أن الضحية صاحبة الحق والمناضلة من أجله هي القادرة على تحريك الفعل الفلسطيني والتضامن العالمي وكسب المعركة على الحيز وعلى الرأي العام، حتى في ظل تردّي الوضع الفلسطيني العام والقيادي الفصائلي على وجه التحديد. دليل هذه الحال هو انه في مواجهة طويلة الأمد ومفتوحة وغير متكافئة بشكل صارخ تتعدد فيها المعارك الموضوعية أم الشاملة غير المخطط لها، قد تكون هذه الامكانية مؤشراً لردع سطوة الفعل الاسرائيلي ولتعزيز الصمود الفلسطيني من خلال اقتناص الفرص التي يولّدها الكفاح الشعبي. هذه المعادلة تزيد من اهمية مسألة المراكمة وبالذات كي لا تذهب هباءً الانجازات الموضوعية ولا الثمن الباهظ بأرواح الفلسطينيين.

يتميز الفعل الشعبي أيضا بأنه متعدد الأمكنة والوضعيات أتي ليخدم غايات عينية لكنها تصبّ في أهداف الشعب الجوهرية، وقام أساسا ليس على تحرير الوطن بل على تحقيق الانتصارات الموضوعية في معارك شعبية عينية سواء مخطط لها أم عفوية. لم ينشغل بالحل السياسي ولا بالبرامج ولا بشكل المستقبل السياسي الفلسطيني بل انشغل بجوهر مركّبات معركة الفلسطينيين الواقعيين تحت الاحتلال والسيطرة الاسرائيلية الكاملة كما لم يتوقف عند الاطر الفصائلية، وهي مقاومة الاحتلال والى حين التحرر منه الصمود وحماية المكان والوجود. كما أنه اندفع ذاتياً وردّاً على الحال الفردية احيانا والجماعية غالباً. كانت القيمة الاضافية إلحاق الضرر السياسي الهائل ولا يمكن التقليل من ذلك لانه فعل مراكمة حتى وإن كانت عفوية. في معركة الشيخ جراح فإن ما قام به على سبيل المثال لا الحصر، كلُّ من منى الكرد ومحمد الكرد ومعهما عشرات الالاف من المغردات والمغردين، هزم آلة إعلام ودعاية صهيونية ضخمة جدا هي جزء لا يتجزأ من منظومة الاحتلال والاستعمار الاستيطاني ومسودة بقوة الدولة. القصة كما الصورة قالت كلمتها بكل وضوح. لقد تميزت الرسالة الاعلامية التحريكية بحدود القصة وبأنسنة الفلسطيني بعيدا عن خطابات المجد والاسطولة، وبالبساطة وبصمود الضحية

وتبيان الاحتلال بكل مركباته؛ الشرطة والجيش والمستوطنين والإعلام والقضاء والرأي العام الاسرائيليين. كما ان الفعل الشعبي عموما لا يعرف الحدود

الفعل الشعبي المذكور وقدرته على تحريك الكل الفلسطيني إنما حمل أيضا اعتراضا عفوياً على الخطاب الذي يتبناه الاعلام الفلسطيني وجيل الانتفاضتين الاولى والثانية، وكذلك الاعلام الاسرائيلي الاحتلالي صاحب الهيمنة وله حصّة في التأثير على الراي العام الفلسطيني، والذي يستخدم ما يمكن توصيفه بـ"عدّاد الانتفاضات" (الاولى والثانية وانتفاضة الحجارة وانتفاضة السكاكين وانتفاضة الأفراد...). إن اهمية التحرر من خطاب تعداد الانتفاضات لا ينحصر في مجرد حدوث الهبات الشعبية غير المنشغلة بالتسميات والتأطير، بل لانه المجال للتفكير المبدع الذي يأخذ بالحسبان التحولات الجارية بتسارع من جيل الى جيل. مثلا اعتمدت الانتفاضة الاولى وكذلك الثانية على البعد الشعبي وعلى المدى الشعبي والجغرافي المفتوح داخل الضفة الغربية، وعلى حالة فصائلية وقيادية مساندة ضمن هيئة تنسيق وطني، بينما اليوم فإن الجدار والحواجز والمستوطنات قد فصلوا بين الشمال والجنوب وقطّعوا اوصال التواصل الجغرافي والحيز المكاني الواسع وخلق هويات محلّوية، وبات الحيز الجغرافي المتاح موضعيا على نطاق بلدة او مدينة او جهة، بينما وقّرت وسائل التواصل الاجتماعي حيّزا افتراضيا لكل الشعب في مختلف اماكن تواجهه وقامت بدور الحيز المكاني نظرا لسرعة انتشارها وامكانيات التفاعل التي توفرها. وهنا من اللافت كان حديث القائد العام للشرطة الاسرائيلية بإغلاق وسائل التواصل الاجتماعي في حال مواجهة قادمة وذلك في تطرقه الى فلسطينيي ال48، وهذا يؤكد وجود مخططات عسكرية بهذا الصدد بشأن الضفة الغربية وغزة، اذ لا تزال سيطرة اسرائيل على بنية شبكة الانترنت الفلسطيني. وفي هذه الايام في خريف العام 2022 بدأ يعلو الحديث الاسرائيلي عن "انتفاضة التيكток" واعتبار أن صورة الانتصار الشخصي التي يبثها الفلسطيني باتت وسيلة اعلام وبات صاحبها نموذجا يحتذى لدى الشباب الفلسطيني، وهذا يعني اسرئاليا فقدان السيطرة وتآكل مفهوم الردع الاحتلالي.

للتعمق في قراءة التحولات الفلسطينية في الفعل الشعبي ممكن اعتماد معيارين للتصنيف:

1. من يقود الفعل الشعبي؟

2. الجوهر السياسي للفعل الشعبي بعد هبة الكرامة

في التطرق الى البعد الأول فإن الفعل الشعبي خلال الهبة قد تميّز بالتباعد بين الحركة السياسية المنظمة من احزاب وحركات وتيارات، وبين الحركات الشعبية والشبابية حصريا. وفي معركة الشيخ جراح فإن الطابع الحراكي الشعبي هو الذي طغى وليس الفصائلي. وبالامكان رؤية صنفين من القيادات، القيادات السياسية الفصائلية والحزبية، وفي المقابل القيادات الميدانية وبالذات الشبابية التي تعمل الى حد كبير بمعزل عن القيادات السياسية وبنوع من الفتور ان لم يكن التوتّر معها. بينما في المقابل فإن إضراب الشعب الفلسطيني كله يوم 18 ايار، والذي دعت اليه لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية في الداخل، واستجابت له كل الفعاليات السياسية والشعبية وحتى م ت ف، وشكّل حدثا جوهريا في الفعل الشعبي، فقد شارك فيه بشكل فعال لكن مستقلّ بقراره الحركات التي وجدت نفسها في حالة النفور المذكورة مع القيادة السياسية. وللتنويه فإنه ليس كل الناشطات والناشطين في الحركات هم في حالة فتور مع الاحزاب بل هناك اعضاء كثر كن الاحزاب بينما الحديث عن روح الاطر. من اللافت هنا القراءة الاسرائيلية المغايرة لذات الوضع، فيعد مضي عام ينشر مركز القدس للدراسة الاستراتيجية (الاسرائيلي) ورقة عمل بحثية مطوّلة يدعو فيها الى حظر لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية في الداخل، باعتبارها هي الجهة التي وضعت الاطار للمواجهات وقامت بالتصعيد في الشيخ جراح والاقصى والداخل وبالذات في مدن الساحل والنقب، ويشير ايضا الى اضراب 18 ايار كنموذج في وحدة الجبهات الفلسطينية اثناء الحرب.

سيف القدس:

شكلت عملية سيف القدس تحوّلًا ما في قواعد اللعبة في المواجهة مع إسرائيل. إحدى تجليات ذلك هو السعي من قبل حركة حماس إلى خلق معادلة ردع متبادل شبيهة إلى الحالة في الجبهة الشمالية مقابل حزب الله. بالإمكان أن نطلق صفة النسبية والمؤقتة على حالة الردع نتاج سيف القدس، ويعود ذلك إلى الفارق الهائل في توازن القوى العسكري من ناحية، وصعوبة إنجاز معادلة ردع قائمة على أن تكون الخسارة النسبية لإسرائيل في أي عدوان على غزة أكبر من الاستفادة منه، وأن تكون الخسائر الفلسطينية ممكنة احتمالها إلى حين يتم تطبيق وقف إطلاق النار بتدخل مصري وإقليمي. كما وهناك فارق جوهري بين الحالتين يعود إلى الحصار الإسرائيلي لقطاع غزة، ولامعتماد القطاع على الاقتصاد الإسرائيلي وعلى إدخال المواد من الطاقة وحتى المواد الطبية والغذائية وطبعًا تصاريح العمل التي عادت لتبرز مؤخرًا. أي أنّ التنسيق المدني لا يقل نفاذًا من الهدنة العسكرية ولا من التنسيق الأمني القائم بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل فالتنسيق المدني هو مركّب جوهري من استراتيجيتي "السلام الاقتصادي" و"تقليص الصراع". كما لم يغيب عن حماس غاية الهدنة من الردع المأمول. لقد شكّلت هذه الغاية عاملاً استراتيجيًا في عقيدة التنظيم، وهو بخلاف عقيدة فصّيلين آخرين لهما وزنهما الميداني وهما الجهاد الإسلامي وفي المقابل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكلاهما يعتمد فكرة الحرب المفتوحة المتواصلة والاشتباك في موقع دونما الهدنة أو بتسميتها المتداولة "التهدئة" وهي تهدئة قائمة على وقف النار مقابل فتح المعابر وإدخال المواد الخام إلى قطاع غزة. وكذلك بخلاف حركة فتح التي تعتمد عقائديًا على البعد الميداني والمقاومة بما يخدم الحل السياسي، وهي المعادلة التي تآكلت بعد سيطرة السلطة الفلسطينية على مواقع القوة والحكم الفلسطينيّين. بينما يتيح الانقسام الفلسطينيّ المستدام والذي نشأ في ظلّه جيل فلسطيني كامل، لدولة الاحتلال بأن تحول دون تبلور استراتيجية فلسطينية بل ما يتبلور هو إعادة إنتاج الانقسام ونخبه والذي يؤدي أيضًا إلى الصراع على الاستحواذ بمرودود النضال الشعبي ذاته.

جاء العدوان الإسرائيلي على حركة الجهاد الإسلامي وكما أطلقت عليه دولة الاحتلال "سطوع الفجر" بينما أطلق عليه الجهاد "وحدة الساحات"، ليؤكد حالة التوتر ما بين

الهدنة/التهدئة وبين وحدة الساحات. بل أشارت حيثيات الامور بأن وحدة الساحات لم تكن ممكنة في ظل قرار استراتيجي لدى حركة حماس بالتهدئة وهي التنظيم المسيطر في غزة. ولا يمكن عزو ذلك الى إصغائها لصوت الناس والرأي العام، لأنه لم يحصل مثل ذلك من قبل، وبالتأكيد لم يحصل في سيف القدس والتي شكلت حالة استثنائية كما اتضح لاحقاً لوحدة الساحات، كما قرأتها اسرائيل وليس بالضرورة كما قرأتها جماهير الشعب الفلسطيني في القدس والساحل وال48 الضفة. بينما بالامكان الاشارة الى تحولات حتى وإن كانت تأتي بطيئة ومتأخرة وهي نتاج الفعل الشعبي المتراكم فيما يتعلق بما يجري داخل الصفوف الميدانية لحركة فتح في شمال الضفة وحصريا في نابلس وجنين، وانتقال اعداد من قوات الامن الفلسطيني الى جانب المقاومة الشعبية. قد يكون من المفيد الاشارة الى خفض صوت النضال الشعبي خلال المواجهة العسكرية في سيف القدس. وحين تمت محادثات التهدئة لم يكن للشعب كلمته. وهذا النموذج كان ايضا في الانتفاضة الثانية، وفي خروج بيروت قبل اربعة عقود. بالطبع لا يُطلب الشعب ان يكون مفاوضا، وعندها نقيس الاتفاق على امتحان النتيجة ودالة الوقت، فقد تصاعدت وتيرة اقتحامات الأقصى وازداد الاستيطان توغلاً في القدس كما في كل فلسطين، وتصاعد العدوان على مدن شمال الضفة وعلى كل تجليات المقاومة. من الأهمية بمكان التناقض بين القراءتين الاسرائيلية والفلسطينية في هذا الصدد بحيث أن كل طرف يؤكد انتصاره وتحقيق غاياته.

مسيرة الأعلام الاحتلالية 2021 و2022

مقابل مسيرة الاعلام الاحتلالية عام 2021 والتي شكل الفعل الفلسطيني متعدد الأمكنة ومتعدد الاساليب انتصارا فلسطينيا غير متوقع، فإن مسيرة 2022 لا يمكن اعتبارها انتصارا اسرائيليا لكن كان من الخطأ عسكرة الخطاب الذي سبقها ورفع التوقعات بمنعها، بل كان من الأفضل ابقاء التصدي لها للبعد الشعبي.

المبالغة بالتهديدات و "الاقصى خط احمر" أفقدت التهديد شيئاً من مفعوله وهذه حال خطابات التصعيد الكلامي غير المصحوب بالفعل او عدم القدرة على الفعل. كما فيها

مؤشرات الى صعوبة إمساك حماس بالبعدين العسكري غير الشعبي والدبلوماسي الذي تصبو اليه. فالناس حين تقاوم شعبياً حتى وإن لم تحقق هدفها فإنها تشعر بالانتصار المعنوي.

فعلياً، لا اعتقد أن مسيرة الاعلام الاسرائيلية قد نجحت، فمعيار النجاح هو ليس إجراؤها او عدمه، وإنما هل استفادت منها دولة الاحتلال أم تضررت سياسياً. وهل قام الشعب الفلسطيني بدوره ام لا؟ وهل أُغْلِقَت دائرة سيف القدس أم لا؟

تميزت مسيرة الاعلام بالمقاومة الشعبية، وحيثما تكون مقاومة شعبية تكون مبدعة وذات رسالة واضحة وانسانية تظهر إجرامية الاحتلال وانتهاكاتها، كما أن تُبطل مفعول التفوق العسكري الاسرائيلي. تميزت بالابداع الشعبي وبتحليق العلم الفلسطيني رمزيا من فوق مسيرة الاعلام بواسطة مسيِّرة.

كان الاخفاق من نصيب استراتيجية حركة حماس في عدة مواضع من معركة الاعلام والتي بالامكان اختصارها فيما يلي:

1. التهديد والوعيد وخلق الانطباع انه سيتم نسخ سيف القدس مجدداً.
 2. الايغال في التصريحات والخطاب القائل بأن الاقصى المبارك هو خط أحمر وبثّ الانطباع بأن صواريخ حماس هي من ستمنع مسيرة الأعلام وهي ستحمي الناس. اي نسخ المعركة السابقة وهي استراتيجية غير مجدية بحد ذاتها.
 3. محورة الصراع بالمسجد الاقصى وليس بفلسطين ككل.
 4. عدم قدرة حماس على تحويل سيف القدس الى حالة ردع ثابتة؛ فمن ناحية كانت معركة سيف القدس فيها أخذ لزام المبادرة والمفاجأة لاسرائيل، وتعطيل سياساتها وأثبتت من وجهة نظر فلسطينية فاعليتها.
- من شأن المقارنة بين رد الفعل على مسيرة الاعلام 2022 و2021 أن تبين الى حد ما الصعوبة الموضوعية في خلق معادلة ردع بسبب عدم توفر القدرة على جعل العدوان الاسرائيلي مكلفاً لاسرائيل بالمفهوم السياسي والاستراتيجي، ولو قارنا ذلك مع حالة الردع القائمة في الجبهة الشمالية والمتواصلة منذ 2006،

ثمّ أنّ تكرار سيناريو المعركة القصيرة ردا على العدوان ثم تدخل الطرف المصري ويتبعه القطري واحيانا الضغط الاردني حتى الاتفاق على وقف لاطلاق النار كأساس لتهدئة قائمة فعليا على "السلام الاقتصادي" وحتى هذا لا تدفع دولة الاحتلال ثمنه، بل يأتي ثمنه من قطر. وهو أقرب الى "سلام رفاه اجتماعي" وليس اقتصاديا بمفهوم بناء اقتصاد وطني فلسطيني. حتى وسائل الاعلام باتت تتحدث عن معركة لعدد من الايام لتتوقف.

في المقابل تأكلت في سيف القدس استراتيجية اسرائيل القائمة على "المعركة بين الحربين" وفي أرض العدو وفي ظرف تفاوت محسوم في ميزان القوى. فقد بدأت سيف القدس بمبادرة فلسطينية وكانت جبهتها داخل اسرائيل وكذلك في القدس، وتزامنت مع هبة شعبية ذات أثر هائل بدأت في حي الشيخ جراح واتسعت لتشمل فلسطينيي 48 وتكامل المشهد بين القدس والشيخ جراح والاقصى وامسيات رمضان الشباوية والشعبية في باب العامود، وفي الساحل والمثلث والنقب.

فائض التهديد بشأن الاقصى زاد منسوب الديني فلسطينيا في الصراع، وفقد من قوته اذ لم يتبعه فعل. قد يكون صحيحا عدم القيام برد عسكري لا تستطيع الحالة الفلسطينية احتماله، لكن هذا المعيار ليس نهجا متبعا. لكن في منطلق الامور لا نستطيع ان نتحدث عن وحدة الساحات

النضال الشعبي اكثر نفاذاً وفاعلية وأثر.

أهمية قراءة القراءة الاسرائيلية

القراءة الفلسطينية للقراءة الاسرائيلية لهبة الكرامة ولمعركة القدس هي ضرورية فلسطيناً، وأحياناً فيها دلالات على أثر الفعل الفلسطيني على دولة الاحتلال ومنظومته والتي يصعب رؤيتها فقط بالتقييم الذاتي ولقراءة الذات فحسب. وهي ايضا تشكل

أساساً للتخطيط للمستقبل إذا كان هناك من يريد التخطيط والمراكمة على الانجازات والتعلم من نقاط الضعف. وهي كذلك قراءة تأخذ بالحسبان أنّ دولة الاحتلال ومنظومتها الامنية والسياسية والمدنية تقوم بدراسة الحدث واستخلاص العبر ضمن التخطيط للمواجهة القادمة.

لا تزال تداعيات هبة الكرامة في الداخل الفلسطيني في مايو/أيار 2021، المتزامنة مع معركة سيف القدس، ومآثر الصمود الشعبي في الشيخ جراح والأقصى، تشغل المؤسسة الصهيونية الحاكمة بكل أجهزتها، معتبرة أنّ هذه الأحداث قد خلقت حالة استراتيجية لم تكن قائمة قبلها، وليست في مصلحة إسرائيل ولم تقع ضمن تقديراتها ومخططاتها.

لم تكن التحليلات الإسرائيلية لهبة الكرامة ضمن التقديرات والقراءات التقليدية فحسب، بل شهدت مناحي جديدة، وعلى الأقلّ لم يجرِ الحديث عنها جهاراً من قبل، وهناك منظومات لا تبحث هذا الشأن في العادة، وبالذات الجيش، آخذاً إياها بحساباته في أي حرب قادمة، ومُطلقاً حتى مناورات عسكرية تحاكي حرباً شاملة وتدعى "عربات النار"، وتشمل التدريبات ضمن ما تشمله كيفية التعامل عسكرياً مع فلسطيني الداخل، سواء المدن الساحلية أو المثلث أو النقب وكل البلدات والتجمعات القريبة من الطرقات الرئيسية والقواعد العسكرية ومحاور نقل الجنود والعتاد، وهي تعكس من ناحية مركّبات التحدي المستجدة. وتنطلق هذه القراءات من العقيدة الراسخة بانعدام أي نيات للتوصل إلى حل مع الفلسطينيين،

ثم إن هذه التدريبات قد تشمل بلدات ومدناً فلسطينية في الداخل، وحصرياً أم الفحم ومنطقة وادي عارة والمثلث الجنوبي، وهي المناطق المرشحة في الذهنية الصهيونية المركزية لمشروع "التبادل السكاني" مع المستوطنين في حال اضطرار إسرائيل إلى إجراء مثل هذا التبادل. ثم إن مجلة "معرخوت" المعنية بالشؤون العسكرية والقتالية والصناعات الحربية قد خصصت مساحة لمناقشة من قبل كبار الضباط في الاحتياط لمسألة "القلقل في المدن المختلطة" ويقصدون الساحلية، وتحديداً مدينتي اللد وعكا

نموذجاً، إذ اعتبرت أن من شأن هذه الأعمال أن تضعف تجنّد جنود الاحتياط للحرب، واعتبرت أنّ الجنود في حال حصول مواجهات في داخل المدن بين العرب واليهود سيفضّلون البقاء مع عائلاتهم وأهاليهم لحمايتهم من "هجمات العرب"، بالإضافة إلى أنّها ستشكّلت انتشار القوات العسكرية. واعتبرت أيضاً أن إغلاق العرب للطرق الرئيسية في النقب سيعني إغلاق مداخل القواعد العسكرية المجمّعة في هذه المنطقة التي أقيمت جميعها على أراضي عربية مصادرة بجانب القرى غير المعترف بها، التي بات التعامل مع سكانها الفلسطينيين كغزاة. ففيما أغلق هؤلاء السكان الطرقات احتجاجاً على هدم البيوت ومشاريع الاقتلاع والتطهير العرقي، ولحماية وجودهم، نظرت إليهم الدولة من الباب العسكري للاحتجاج المدني، ولذلك، وحسب المصدر ذاته، قرر الجيش تخصيص وحدات عسكرية خاصة لحماية محيط القواعد العسكرية والطرق الرئيسية، على شاكلة قوة ردع سريع ويشمل ذلك قطع بنية التواصل الاجتماعي للحيلولة دون تسارع الهبة الشعبية وتزامن أحداثها في مواقع مختلفة.

الاستراتيجية الوطنية:

يمر الشعب الفلسطيني في مرحلة لا تنتج فيها الحركة السياسية الفصائلية استراتيجيات وطنية او مشروعاً وطنياً تحررياً متوافق عليه، ويبدو لن يكون الأمر ممكناً ما دامت م ت ف على حالها. في المقابل هناك مؤشرات من حالة المقاومة الشعبية وعرين الاسد والحالة المعنوي الناتجة عنها، فإن نموذج العمل الميداني الأقل فصائلياً والأكثر وطنياً، هو نموذج جديد في المرحلة الراهنة.

مقابل الحركة السياسية فإنّ ما بدأ من فعل شعبي في جنين والمخيم وانتقل الى نابلس وخلال أسابيع انتشر النموذج في كل انحاء الضفة الغربية من جنين الى الخليل ومن الاغوار الى القدس.

كما ان دخول شرائح من حركة فتح (وهي الحزب او الفصيل الحاكم في السلطة الفلسطينية) في معمعان العمليات وفي المقاومة

ميدانيا يبدو ان حركة الناس العفوية منها وغير العفوية وبالذات في شمال الضفة الغربية باتت السبابة

بخلاف وضعية جماهير شعبنا في غزة المحاصرة، فالرهان الشعبي هو على الضفة الغربية هو رهان صحيح، وفي هذا الصدد من الاهمية بمكان قراءة القراءة الاسرائيلية وما يقلق دولة الاحتلال:

1. الموقع الجغرافي (الضفة) مقابل مركز البلاد والمدن الاسرائيلية والسهولة النسبية للتنقل من جانبي "الخط الاخضر"
2. القرب من المستوطنات والحواجز
3. مشاركة حركة فتح مع برنامج سياسي
4. مشاركة عناصر من الامن الفلسطيني
5. استهداف المستوطنات والحواجز. معالة جعل الاحتلال مكلفا للاسرائيليين
6. الكم الكبير من العمال الفلسطينيين في المرافق الاسرائيلية

وفقا للعمليات التي تحدث مؤخرا في استهداف حواجز وجنود ومستوطنات فإن هذه العمليات التي قد تبدو فردية، هي بالأساس موجّهة لاحداث اختراق لمعادلة الاحتلال السلس او المفروغ منه. وإن كانت استراتيجية اسرائيل هي تحويل تعميق الاحتلال الى أمر واقع، فإن العمليات الاخيرة تقول خلاف ذلك، وتسلب الاضواء على الاحتلال وكل منظوماته.

ما يميز المواجهات الشعبية مع دولة الاحتلال والحملات الشعبية المنبثقة عنها هو تحرر الميدان الفلسطيني من معادلة توازن القوى والهيمنة الاحتلالية. انها المساحة الحرة المتاحة.

الاسرائيلي لا يحترم الفلسطيني الضعيف ويخشى الفلسطيني الواثق. وهو يسعى بمنهجية نحو ما يطلق عليه الاحتلال "جرب هجينة" تسعى الى القضاء على قدرات

العدو قبل بدء الحرب المعلنة. وهذا يؤكد الرباط بين منظومة الجريمة التي تنهك فلسطينيي الـ 48 والمرتبطة كما سوق سلاحها بالدولة، وهذا مرتبط ايضا بخطاب الدفع نحو الهجرة الفلسطينية الى خارج الوطن وحتى في المساعي العليا لبعثرة الوحدة السياسية التي تمثلت في القائمة المشتركة والتي عوّقت القدرة على ضمان ائتلاف حاكم. لكن تبقى المسألة الاكثر مقلقة لاسرائيل هي وحدة الشعب الفلسطيني ووحدة النضال والفعل الشعبي.

يتضح مما يحدث على مستوى الهبة الشعبية التي لم تعد تهدأ بل باتت سيّارة من موقع الى موقع، هو أنها ليست مشغولة في الحلول السياسية وشكلها، بل في التحرر من الاحتلال والاستيطان الاستعماري. كما أنها ليست مشغولة بالانقسام الفلسطيني بل تجاوزته ميدانيا. وهي تشير الى أن الاولوية الفلسطينية العليا التي تتيح مضاعفة قوة الشعب هي إعطاء الاولوية الى الشعب الفلسطيني وليس الاستخواذ على نضالاته وابداعاته في هذا الصدد.

وفي المقابل من المتوقع أن يتصاعد القمع الاسرائيلي وأن تتسع حرب الاستنزاف التي تفرضها على الشعب الفلسطيني والسعي لتفريغه من مواطن قوته. حتى وإن كان دائما يُفاجيء. وهنا يندرج تحويل الجهاز القضائي الاسرائيلي الى محاكم سياسية تخدم مباشرة سياسة تصعيدية، فلا تزال ملفات الشباب الفلسطيني في الداخل مفتوحة، وتصدر المحكم أحكاما انتقامية بكل المعايير، وذلك بطلب مباشر من جهاز الشاباك، لردع الشباب في الصدمات القادمة، فالاحكام تصل ثماني سنوات والبعض قد تطلب النيابة اصدار الحكم بالسجن المؤبد او لعشرات السنين. وهذا يستنزف الطاقات الشعبية والعائلات والعمل السياسي.

الفعل الشعبي غير الفصائلي لا يعني بالضرورة الصراع مع الفصائل ولا يعني بالضرورة في الداخل الصراع مع الاحزاب، لكنه يتحرّك عفوي ذي طابع شعبي حراكي او ناتج عن قرار مستقل عن البنية التنظيمية ومواقع اتخاذ القرار الفصائلي او الحزبي وعن اولوياتها

أحيانا. إلا أن المميز للفعل الشعبي الفلسطيني في العامين الأخيرين هو خلق فضاءات ومساحات جديدة لإدارة الصراع مع المشروع الصهيوني في فلسطين.

وهذا لا يلغي الأساس الحزبي الصلب أو المبني على القوى السياسية والإشارة هنا إلى إضراب الشعب الفلسطيني العام يوم 18 أيار 2021 والذي دعت له لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية في الداخل، والذي تبنته كل الأطر والفعاليات الفلسطينية من منظمات ف ولغاية كل الحركات القطرية والمحلية الشبابية والشعبية. وهو ما تنبته له المنظمات الصهيونية لأبحاث الأمن القومي الإسرائيلي ليعد مركز يروشاليم لاستراتيجيات الأمن القومي تقريراً مفصلاً على عشرات الصفحات يلخصه بالدعوة إلى حظر لجنة المتابعة العليا نظراً لدورها في التصعيد الشعبي وفي ربط أطراف القضية الفلسطينية وجبهاتها.

هذا الأمر يؤكد ضرورة العمل برؤية مستقبلية فلسطينية سياسية تشمل كل فعاليات الشعب الفلسطيني، أي إضافة إلى الاستراتيجيات المحلية هناك ضرورة لاستراتيجية فلسطينية شاملة رابطة بينها بجانبها الشعبي والرسمي. وهذا يتطلب إيجاد صيغة حوارية للتقريب ما بين العمل السياسي المنظم والحركات وبالذات الشبابية التي تملك قيمة إضافية من الطاقات التي لم يعتد عليها العمل المنظم في مجالات سرعة التفاعل والاعلام الجماهيري صاحب الأثر فلسطينياً وعربياً وعالمياً.

كما وكان لافتاً في هبة الكرامة والشيخ جراح بأن العالم تنبّه بشكل أوسع إلى الرابط العضوي بين مركبات قضية فلسطين التي لا يمكن تحديدها بالخط الأخضر أي لا يمكن حصرها في الحدود التي خلقها احتلال 1967 بل بما حدث في العام 1948.

جاءت قرارات مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة من 27 أيار 2021 بإقامة لجنة تحقيق دائمة تبت في جرائم إسرائيل في كل فلسطين بما فيها فلسطين 48 بمثابة تحول هام من جهة، وكذلك رافعة لفلسطينيين الـ 48، وقد تعاضمت هذه الرافعة بإسنادها من تقريرين صادرين عن هيومان رايتس ووتش ثم منظمة العفو الدولية أمنستي، وقد حمل التنظيمان إسرائيل المسؤولية عن حال الفلسطينيين في كل

المناطق التي تسيطر عليهم واعتبروا ذلك منظومة واحدة، وتعزز هذا المنحى في قرار الجمعية العامة إحالة مسألة الاحتلال الى محكمة العدل الدولية للبت في اعتبار فلسطين دولة تحت الاحتلال. الا انها قرارات مجدية بقدر النضال الفلسطيني في كافة المواقع، ولن تغير الواقع بحد ذاتها.

مجمل محاور الصدام في العامين الاخيرين اي القدس والساحل والنقب والمثلث والجامعات الاسرائيلية يضاف اليها مناطق ج في الضفة الغربية مرشحة للاشتعال، يضاف اليها الحركة الاسيرة المستهدفة في سجون الاحتلال، وهذه المرة بمبادرة اسرائيلية، وقد نواجه استراتيجية اسرائيلية معاكسة قائمة ايضا على الاشتباك الرسمي-شعبي صهيوني ديني وعصابات، مبنية على بنية قمع ورقابة وضبط ونشر الهلع والخوف، قائمة على دمج الفعل الميليشياتي شبه الرسمي بالفعل الرسمي لاجهزة القمع من شرطة وحرس الحدود والمستعربين والشاباك وحتى من الجيش. عمليا نحن بصدد إناطة وظيفة ميليشياتية بالاجهزة الأمنية الاسرائيلية المعروفة. تجدر قراءة هذا التحول المتسارع ببعده الآني والذي سيتم التصدي له ميدانيا وجماهيريا وباللجوء الى مواطن القوة الشعبية والى المحافل الدولية، الا ان ما يبدو خطرا للمدى البعيد هو الدفع بالشباب الفلسطيني في ال48 وبالذات خريجي وخريجات الجامعات الى الهجرة من الوطن. وهذا يندرج في اطار استراتيجية تفتيت المجتمع الفلسطيني ضمن ما يطلق عليه "الحرب الهجينة" التي تسعى لتفكيك العدو من قدراته قبل بدء المواجهة التالية، وفي هذا السياق يندرج مفعول مخططات الدولة وتورطها في مسألة تعاضم دور الجريمة المنظمة وسوق السلاح والمال والسطوة.

هناك كما يبدو من المؤشرات والتي سبقت الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة التي تؤكد انه من ضمن استخلاص النتائج من هبة الكرامة بأن المسعى الصهيوني الحاكم هو عدم الركون الى معادلة "الوضع القائم" مع فلسطينيي ال48 بل اعتبارهم جبهة مواجهة شعبية معوقة في حال عمل عسكري متعدد الجبهات وينبغي قمع هذه

الامكانية مسبقاً. فالمتوقع هو سياسات اسرائيلية هجومية تجاه هذا الجزء من الشعب الفلسطيني والذي بات سندا لكل نضال فلسطيني اينما كان، ورافعة لمجمل قضية فلسطين ولعدم تجزئتها. بل أن قوتها تكمن ايضا في نمط فعلها التاريخي القائم على النضال الشعبي.

وإذ يبدو هنالك تراجع في الفعل الشعبي الحراكي، فهو وبالذات لكونه بطبيعة الحركات، غير قائم على الاستدامة التنظيمية، ولغياب استراتيجية تربط ما بين الهدف والفعل الشعبي والمسار للوصول له، بينما نحن في مواجهة مع دولة احتلال وعنصرية متكاملة البنية والمنظومة تسيير حسب استراتيجيات فيها مخططات للمدى القريب وللمدى البعيد على السواء وهذا الاخير من الصعوبة بمكان تعقب مساره واذرع تنفيذه وأثر سياساته الا حين تصل مرحلة النتائج. إن عدم التكافؤ الصارخ في هذا الصدد هو ما يجعل كل طرف يؤكد انتصاره وتحقيق اهدافه من ذات المواجهة.

خلاصة وبعض التوصيات:

- وعي القضية هو حالة ضرورية فلسطينيا وهي نقيض كل الاستراتيجيات الصهيونية.
- لا يبدو أن فلسطينيي ال48 باتوا اكثر قوة وأكثر وحدة عام بعد هبة الكرامة، بل يواجهون مخاطر تشرذم، وبالتالي وجود ضرورة لبذل الجهود في تكامل الادوار بين الفعل الشعبي والفعل السياسي المنظم
- حاجة ماسة الى تأطير القراءات الفلسطينية في قراءة جامعة للواقع الفلسطيني، وفي المقابل الواقع الاسرائيلي الاستعماري الاستيطاني الاحلالي الواحد، ومراقبة مناحي السياسات طويلة الامد الساعية لتفتيت المجتمع الفلسطيني. والمساهمة في بلورة استراتيجيات فلسطينية برؤية مستقبلية
- ضرورة تعزيز دور لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية وتعزيز تفاعلها وتوسيع اطارها.

- ضرورة الحفاظ على حرية عمل الحركات بروح الفعل الشعبي المفتوح لكل الاجتهادات.
- ضرورة الالتفات فلسطينياً وعربياً وعالمياً للتحديات التي يواجهه فلسطينيو ال48 ولمكامن قوتهم والاستفادة منها في صالح معظم قضية فلسطين